وقوله تعالى ﴿الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٥﴾ [يس] ذكر سبحانه هنا صفة العزة وصفة الرحمة ؛ لأن التنزيل من أعلى منهج يقيد حركة الإنسان بافعل كذا ، ولا تفعل كذا ، وأنت مختار تطيع أو تعصى ، فالحق الذى شرع لك هذا المنهج يريد لك الخير ؛ لأنه سبحانه لا يعود عليه شىء من طاعتك ولا تضره معصيتك .

إذن : أنت المقصود من هذه المسألة ؛ لأن الله تعالى عزيز عن خلْقه ، ورحيم بهم ، فإذا نظرتَ إلى العاصى المخالف لمنهج الله ، فالله عزيز قادر على الانتقام ، لا يقدر أحد أن يأخذك من قبضته تعالى ، وإذا نظرتَ إلى المطيع ، فالله رحيم .

وعلة الإنزال :

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ(١) ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾

الإنذار : التخويف من معطب مهلك ، ويشترط أنْ يكون الإنذار قبل وقوع الشىء ليؤدى الإنذار مهمته فى أنْ يردع الإنسان عنه ، فلا يقع فى أسباب الهلاك ، ويستطيع أنْ يحتاط لنفسه ، وأن ينجو بها .

---

(١) فى هذه الآية أمر دقيق جداً يجب الانتباه إليه ، فإن بعض المشككين فى القرآن قديماً وحديثاً يقولون : كيف يقول القرآن هنا ﴿مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ ۝٦﴾ [يس] أى أن العرب لم يُنذروا من قبل ، وهذا ما صرح به ابن كثير فى تفسيره ، كيف يقول القرآن هنا هذا ، وفى آية أخرى يقول : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ۝٥٤﴾ [مريم] أليس إسماعيل من العرب؟

نقول : نعم ، إسماعيل رسول ونبى كما نص القرآن ، بل فى آيات أخرى كثيرة صرح القرآن بأنه أوحى إلى إسماعيل ، كما قال تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۝١٦٣﴾ [النساء] ، بل نزل عليه مثل ما نزل على إبراهيم ، كما صرحت الآية﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ..۝٨٤﴾ [آل عمران] وهذا يؤكد أن (ما) هنا فى الآية اسم موصول ، لا نافية . والمعنى على هذا : لتنذر قوماً **الذى** أُنذر آباؤهم . أى (مثل الذى) أو (بالذى) . لذلك قال : فهم غافلون أى أنهم غفلوا ونسوا ما كان عليه إبراهيم وإسماعيل ، فأشركوا مع الله رب البيت الذى بناه ورفع قواعده إبراهيم وإسماعيل ، وكانوا يُقرُّون بأن الله هو الخالق الرازق ، ولكن علتهم هى الشرك ورفضهم أن يخرج من بنى هاشم رسول . والله تعالى أعلى وأعلم . [عادل أبو المعاطى]

ومعنى ﴿ مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ ﴾ [يس] ساعة تسمع (ما) تظن أنها نافية ، كذلك قال المفسرون . قالوا : لأنهم كانوا أى : الآباء أهل غفلة ، وعلى فترة من الرسل ، فلم يكُنْ لهم رسول ينذرهم . فإنْ قُلْنا : إن رسول الله ﷺ أُرسلَ نذيراً للناس كافة ، بمن فيهم من اليهود والنصارى قالوا : لا ، ليس نذيراً لنا ، فقد جاءنا نذير من قبله ، جاءنا موسى وجاءنا عيسى .

وحَلُّ هذا الإشكال أن نقول : نعم موسى عليه السلام أنذر قومه ، وعيسى عليه السلام أنذر قومه ، لكن مرَّتْ عليهم جميعاً فترات اختلفوا فيها وضلُّوا ، ولم يأْتِ لهم نذير يردُّهم عن ضلالهم ، إذن : جاءكم النذير ، لكنكم لم تستمروا على نذارته ، وها هو محمد ﷺ جاءكم نذيراً جديداً .

أو : أن (ما) هنا بمعنى اسم موصول أى : لتنذر قوماً بالذى أُنذر به آباؤهم ، كما أُنذِر آباؤهم من قبلهم . يعنى : لستَ بِدْعاً من الرسل .

وقوله : ﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس] الغفلة أنْ يوجد شىء كان بخاطرك ، ثم لم يتعلَّق قلبك به حتى يدخل فى مرتبة النسيان ، فلا تذكره إلا حين يأتى مَنْ ينبهك إليه ، ويُذكِّرك به ، والنسيان ليس وظيفة القلب ، إنما وظيفة العقل والذاكرة ، فلو أن القلب مُتعلِّق بالشىء ، فكلما طرأتْ عليه غفلة تعلَّق القلبُ بها يسدها ، فتظل فى الذاكرة لا تغفل عنها .

﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ ﴾

الحق سبحانه وتعالى سطَّر أزلاً كلَّ ما يكون من مُستقبلى أىِّ دعوة دينية المؤمنين بها والكافرين ، لكنه سبحانه ترك للناس

الاختيار ، وكَوْنه تعالى يسجل ما سيحدث من الناس ، ثم يأتى الحدث منهم وفْق ما سجَّل ، هذا يعنى أن ما قاله قديماً حقٌّ .

والقرآن يقول مرة ﴿ حَقَّ الْقَوْلُ (٧) ﴾ [يس] ، ومرة ﴿ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ (٤٠) ﴾ [هود] ، ومرة ﴿ وَقَعَ الْقَوْلُ (٨٢) ﴾ [النمل]

وكلها تدل على أن ما سبق فى علم الله من الإخبار عن مختار اختار الهدى أو الضلال مُسجَّل عنده تعالى ، وهو حق كما أخبر الله به ، ولو كان العبد غير مختار لَقُلْنا : إن الله قهره على ما أراد ، لكنه مختار .

والحق سبحانه له طلاقة القدرة وطلاقة العلم ، فلعلمه تعالى بما سيكون سجل وكتب ، وقد أوضحنا هذه المسألة فى كلامنا عن أبى لهب : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) ﴾ [المسد] فقد كان بوسع أبى لهب حين سمع هذه الآية أنْ ينطق بكلمة الإيمان ولو نفاقاً ، وله إذن أنْ يتهم القرآن وأنْ يُكذِّبه ، لكنه لم يفعل وظَلَّ على كفره حتى صدَق فيه إخبار الله مع أنه مختار .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. (٨) ﴾[المجادلة] وعجيب منهم بعد أنْ فضحهم القرآن ، وأخبرهم بما يدور فى نفوسهم ألاَّ يؤمنوا به ، وألاَّ يسألوا أنفسهم مَن الذى أخبر محمداً بما فى نفوسنا ، ولو لم يكُنْ منهم هذا القول فى أنفسهم بالفعل لواجهوا محمداً ، ولقالوا : لم يحدث منا هذا .

لذلك الذين أنكروا رسالة محمد ﷺ مع إخباره بمغيبات لا تقع عليها عقول البشر أنكروا رسالته ، ولكنهم أرادوا أنْ يُثبتوا له فوق الرسالة أنه إله يخبر بالشيء قبل حدوثه ، فهو ﷺ يقول لهم : أنا رسول وهم يريدونه إلهاً .

القول السابق وقع على هؤلاء ؛ لأنهم لا يؤمنون ، ولأنهم يكذبون ويعاندون ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٧) ﴾[يس] لذلك يقولون : إن للملائكة تعجباً ، قالوا : وما تعجُّب الملائكة ؟ قالوا : ساعة تقع فى كون الله حركةٌ يجدون خبرها عندهم فى الكتاب ، فيقولون : ما أعلم ربنا وأقدره ، يعنى : ما أخبر الله به ، وقع كما أخبر تماماً ، مع أن العباد لهم حرية الاختيار .

ولما حاول الفلاسفة عَرْض هذه المسألة : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٧) ﴾[يس] قالوا : الحق سبحانه وتعالى حين ترك الأمر للمكلَّف بالاختيار ؛ لأن الإنسان نفسه قَبل أنْ يكون مختاراً لم يلزمه الله بشىء ، على خلاف السموات والأرض والجبال ، فقد رفضتْ هذا الاختيار ، واختارت أن تكون مُسخَّرة لله ، مقهورة لإرادته سبحانه .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

إذن : الحق سبحانه خَيَّر الجميع فأبت السموات والأرض والجبال ، أما الإنسان فقد اغترَّ بعقله وذكائه وتصرفه فى الأمور ، فَقَبِل الاختيار ، فحكم الله عليه بأنه ظلوم وجهول ، ظلوم لأنه ظلم نفسه بتحمُّل الأمانة ، وجهول لأنه ضمن وقت التحمل ، ولم يَضمن وقت الأداء ، فالعاقل هو الذى ينظر إلى وقت أداء الأمانة ، لا إلى وقت تحمُّلها .

فلو جاءك صديق يُودع لديك مبلغاً من المال كأمانة لحين الحاجة إليه ، فمن السهل عليك أنْ تقبل هذا المبلغ وفى نيتك أداؤه عندما يطلبه صاحبه ، لكنك لا تضمن أنْ تتغير ظروفك فتحتاج إليه ، أو تتغير ذمتك ، أو غير ذلك مما يطرأ على الإنسان .

إذن : فجهل الإنسان هنا أنه أغفل وقت الأداء ، وظُلْمه لنفسه أنه جرَّ عليها مَا لا تقدر عليه ؛ لأن شهوات نفسه لا بُدَّ أن تُلح عليه ، ولا بُدَّ أنْ تُوقعه فى المخالفة .

قالوا : إن العالم كله محكوم بأمرين : بمشهود ، وغيب ، ومن عجيب الأمر أن المشهود هو الدليل على الغيب ، يعنى خُذْ مما تراه دليلاً على ما لا تراه ؛ لذلك حين نريد أنْ نربى فى الناس الإيمانَ بالله نلفت أنظارهم إلى ملكوت السموات والأرض : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) ﴾ [فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾ [فصلت]

وبعد أنْ تتأمل فى ملكوت الله وآياته فى كونه فتؤمن به يعطيك قضايا أخرى لا يتسع لها عقلك ، لماذا ؟ لأنه سبحانه يريد للإيمان به عنصرين : أنْ تؤمن بالمشهد ، وأن تسلم إذا آمنت بالمشهد على وجود حق ، وهو الحق واجب الوجود ، فتسمع منه سبحانه ، فإنْ أخبرك بشىء لم يتسع له عقلك فاقبله من باطن الإيمان به .

فإنْ قال لك إن الصراط مثلاً أدقُّ من الشعرة ، وأحدُّ من السيف فلا تنكر ، وإنْ كان عقلك لا يتسع لإدراكها ، لأن الذى قالها الله المشرع . فأنت أخذتَ من المشهد دليل الغيب وهو الله ، وأخذتَ من دليل الغيب وهو الله إيمانك بأشياء لا يعقلها عقلك ، فكأن المشهد والغيب عليهما مَدار الإيمان وغيره .

فمطلوبات التديُّن إما مطلوبات من القلب ، أو مطلوبات من

الجوارح ، أو مطلوبات من اللسان . فالقلب مطلوب منه العقيدة بأنْ يؤمن بواجب الوجود ، وأنه واحد ، وأن يؤمن بأنه لا بُدَّ أن يبلغنى منهج حياتى ؛ لأنه هو الذى خلقنى وأنا صنعته ، والصانع هو الذى يحدد قانون الصيانة لما صنع ، وقانون الصيانة لا يكون إلا بالبلاغ .

والحق سبحانه لا يكلم الخَلْق واحداً واحداً ، إنما يصطفى لهذه المهمة - مهمة البلاغ عنه سبحانه - مَنْ يشاء من الملائكة ومن البشر ، فالمصطفى من الملائكة يبلغ المصطفى من البشر ، والمصطفى من البشر يبلغ بقية الناس ؛ لذلك ربَّى النبى ﷺ الأمة الإسلامية فى ثلاث وعشرين سنة ، ولو أن كل واحد انتظر أنْ يكلمه الله مباشرة لاستغرقتْ تربية الأمة أكثر من ذلك بكثير .

إذن : البلاغ عن الله ضرورة من ضرورات وجود الله ، وإلا إذا كان الله موجوداً فأنت لا تعرف أنه سبحانه واحد ، أو أن له شريكاً ، أنت بنفسك لا تعرف هذه المسألة ، لا بُدَّ من رسول يخبرك : عن الله ، عن اسمه ، وعن صفاته ، وعن مراده منك .

لذلك الذين يعبدون الشمس أو القمر أو الشجر أو الحجر أبلغ رد عليهم أنْ نقول لهم أولاً : ما هى العبادة ؟ العبادة طاعة العابد لمعبوده فى أمره ونَهْيه ، فنقول : ماذا قالتْ لكم الشمس ؟ بمَ أمرتكم ؟ وعن أىِّ شىء نهتْكم ؟ ماذا أعدَّتْ لمن عبدها ؟ وماذا أعدَّتْ لمَنْ عصاها ؟ إذن : هذه آلهة بلا منهج وبلا تكاليف ، فهى إذن باطلة مردودة .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بمثال ، قُلْنا : لو أن طارقاً طرق علينا الباب ، لا بُدَّ أننا جميعاً سنلتقى فى فكرة واحدة ، هى أن طارقاً بالباب يريد الدخول ، إنما لا أحد منا يعرف مَنْ هو ؟ ولا لماذا

أتى ؟ ولا من أين ، أهو بشير أم نذير ؟ هذه أمور لا بد أننا سنختلف فيها .

إذن : علينا أن نقف عند الحد الذى نتفق عليه ، وهو أن طارقاً بالباب ، ونترك لهذا الطارق أن يُعبِّر هو عن نفسه ، فنقول : مَنْ أنت ؟ فيقول : أنا فلان جئت لكذا وكذا . كذلك الحق سبحانه يكفى أنْ تستدل من صُنْع الكون العجيب أن له صانعاً عالماً قادراً حكيماً ، له كل صفات الكمال ، لكن مَنْ هو ؟ وما مراده منك ؟ هذه مهمة الرسول المبلِّغ عن الله .

لذلك ، فإن خيبة الفلاسفة أنهم لم يقفوا عند تعقُّل واجب الوجود سبحانه ، بل أرادوا أنْ يتصوروا واجب الوجود ، هذا هو خطؤهم ، ولو وقفوا عند التعقُّل لكان كافياً ، ثم تقول لمن تعقلته : من أنت ؟ وماذا تريد منى ؟ ماذا أعددتَ لى إنْ أطعتُك ؟ وماذا تفعل بى إنْ عصيتُك ؟ وعندها يرسل لك رسولاً يجيبك على كل هذه الأسئلة .

هذا هو مطلوب التديُّن القلبى ، وهو الاعتقاد بوجود إله واجب الوجود ، واحد أحد ، وأنه يرسل الرسول ليبلغ عنه ، وهذا الرسول صادق فى البلاغ مُؤيَّد بمعجزة ، هذه مسألة عقلية واضحة .

وبعد أنْ آمنتَ بهذه العقلية الواضحة المشهودة يخبرك بأشياء غيبية لا دليلَ عليها ، كالإخبار مثلاً عن الجنة وصفاتها ، وأنك ستتمتع فيها وتأكل دون أن تتغوط .. إلخ هذه كلها مسائل يقف العقل أمامها ، لكن مَنْ أخبرك بها ؟ الله الذى صدقك فيما شاهدتَ ، وسبق أنْ آمنتَ به ووثقتَ بكلامه .

ثم يأتى دور مطلوبات الجوارح ، فالإله الذى آمنتَ به لا بُدَّ أنْ

تكون على اتصال دائم به سبحانه ؛ لذلك شرع لك الصلوات الخمس ، وفيها دوام الولاء لله .

لكن ، لماذا جعلها خمس صلوات ؟ قالوا : كانت خمسين لتستوعب كل الزمن يعنى : خمسين تُوزَّع على أربع وعشرين ساعة ، بمعدل صلاة كل نصف ساعة ، ومن رحمة الله بنا أنْ جعلها خمساً فى العمل ، وخمسين فى الأجر ، ومع ذلك يملّ الناس منها .

وأذكر أننا ونحن فى الحرم ، كنا نصلى الظهر مثلاً ، وسرعان ما يُؤذَّن للعصر ، فلا نتمكن من الجلوس فى الحرم والتأمل فيه ، والنكتة المشهورة فى هذا المقام أن الشيخ أحمد رحمه الله كان كثيراً ما يُذكِّر واحداً منا بالصلاة (قوم يا واد صلى) . فقال له : يا شيخ أحمد (احنا جايين نحج ، مش جايين نصلى)

إذن : نقول جُعلَتْ الصلاة خمساً لتستوعب كل اليوم والليلة ، ولتحقق استدامة الولاء لله تعالى ، ثم أنت فى الصلاة نفسها تجد هذه ركعتين ، وهذه ثلاثاً ، وهذه أربعاً دون أنْ يعى عقلُك الحكمة من العدد هنا ، ويكفى أن تقول هنا إن الله هو الذى شرعها كذلك وتقف.

ثم أنت لا تعيش فى المجتمع بمفردك ، بل مع أناس ، منهم الضعيف ، ومنهم الفقير والمحتاج ، وهؤلاء لا بُدَّ أنْ يعيشوا كما تعيش أنت ، فعليك أن تُعينهم بالزكاة أو الصدقة .

ثم شرع لك الصيام ، وهو عبادة تُعوِّدك ألاَّ تعصى الله وتُبعدك عن المخالفة ، حتى تصير الاستقامة عادةً مُتأصِّلة فيك ، والله يريد أنْ يستديم فى التكاليف حرارة العبادة ، لا إلْفَ العادة ؛ لذلك يأتى إلى ما أحلَّه لك فى شعبان ، ويمنعه عنك فى رمضان .

كذلك فى اللســان الذاكر الناطق بالكلمات ، هناك فى القـرآن كلام تفهمه ، وكلام يقف أمامه عقلك ، فـفواتـح السور مثلاً كلها مما تقف فيه العقول ، والباقى مما تتفتَّـح فيه العقول وتفهمه ؛ لأن هناك فرقاً بين مَنْ يُقبل على الشىء لتعقله ، ومَنْ يُقبل على الشىء بدون تعقُّل ، ولكن لأن الآمر أمر به .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً قُلْنا : هَبْ أن سـيداً فى بيته وعنده عمال، فقال لواحـد منهم : انقل هذا الحجر من مكانه إلى مكان آخـر فقال : لا أقدر وحدى ، وسوف أستعين بزميل لى ، فقال : إن تحته مالاً هو لك ، عندها سيكافح وحده لنقْل الحـجر ، إذن : نقله للعلة أم للأمر ؟ للعلة ، والإيمان لا يكون كذلك ، الإيمان لا يكون لعلـة ، إنما انصياعاً للأمر .

فالمعنى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ ۝٧ ﴾[يس] يعنى : وجب وثبت وجاء كما سجلناه عليـهم ، وقوله ﴿ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ ۝٧ ﴾[يس] يعنى : ليس عليهم جميعاً ، وهذا كما قلنا سابقاً احتياط للواقع ، وهو دليل على أن منهم مـؤمنين ، ولو رجـلاً واحـداً ، وهذا الاحتـيـاط من القـرآن نسـميـه « صيانة الاحتمال » .

وقوله تعالى : ﴿ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ۝٧ ﴾[يس] إخبار يدل على حيثيات هذا الإخبار .

ثم يقول سبحانه :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ ﴾

يعطينا الحق سبحانه فى هذه الآية تصويراً لحال هؤلاء الكافرين المعرضين عن اتباع الحق ، فيقول : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِىَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ ﴾[يس] الأغلال : مفردها غل ، وهو الحديدة التى تمسك اليد وتشدّها تحت الذقن ، وحين تشد اليد تحت الذقن ترتفع الرأس إلى أعلى ، وبالتالى يرتفع مستوى النظر إلى أعلى ، فلا يكاد يرى الإنسانُ طريقه ، ولا يهتدى إلى موضع قدمه .

وهذه الصورة واضحة أيضاً فى معنى كلمة ﴿ مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ ﴾[يس] المقمح : مأخوذ من إبل قماح ، وقماح الإبل أنها حين تذهب لشرب الماء تغرف منه ، ثم ترفع رءوسها إلى أعلى[1] .

قال بعضهم : إن هذه صورة رسمها الحق سبحانه لمن غَلَّ يده عن الصدقة وعن الإنفاق ، كذلك تُغَلُّ يده إلى عنقه يوم القيامة ، بحيث يؤثر هذا الغُلُّ فى مساره الذى بنى عليه حركة حياته ، والحق سبحانه يوازن دائماً بين ما فعله المستحق للجزاء والجزاء ، فالجزاء من جنس العمل .

ومثال ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٣٤﴾ ﴾[التوبة] هذا هو العمل ، فما الجزاء ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [التوبة]

هذه مواضع ثلاثة من الإنسان : الجِبَاه ، والجُنُوب ، والظُّهور جاءت بهذا الترتيب لتطابق تماماً ما فعله صاحب المال الذى كنز ماله وضَنَّ به على الفقير ، فقد كان الفقير يأتيه فيلوى عنه جبهته ويعطيه جَنْبه ، ثم

(١) قال الجوهرى : قمح البعير قموحاً وقامح إذا رفع رأسه عن الحوض وامتنع عن الشرب ، فهو بعير قامح . [لسان العرب - مادة : قمح] .

يدير له ظهره وينصرف عنه ، فجاء عذابهم على مقدار ما فعلوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

هل معنى هذا أن الله تعالى يساعدهم ، ويُعينهم على الكفر ؟ قالوا : نعم لأن عبدى حين أناديه فيتأبّى علىَّ فى ندائى ، ولا يُقبل علىَّ بعبوديته لى أعينه على كفره ؛ لأننى رَبٌّ غنى عنه ، فإنْ أحب الكفر وعشقه ولم يَعُدْ هناك أمل فى هدايته أختم على قلبه ، فلا يدخله إيمان ، ولا يخرج منه الكفر . لذلك مَنْ تجنَّى عليك وصدَّ عنك فأعنْه على ذلك ، ولا تُذكِّره بنفسك .

إذن : ما كفر أحد غَضْباً عن الله ، إنما كفر بما أودع الله فيه من اختيار ، ولأنه سبحانه رَبٌّ وهو خالق العباد ، فعليه سبحانه أنْ يُعينهم ، كلاً على ما يريد ، فالذى أراد الإيمان وأحبَّه أعانه على الإيمان ، والذى أراد الكفر وعَشِقه أيضاً أعانه عليه وساعده .

لذلك ختم الله على قلوب الكافرين ، وهنا يقول : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴿٩﴾ ﴾ [يس] يعنى : أمامهم ﴿ سَدًّا ﴿٩﴾ ﴾ [يس] حاجزاً ومانعاً ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴿٩﴾ ﴾ [يس]

هذا مانع مادى خارج عن تكوين الإنسان ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴿٩﴾ ﴾ [يس] يعنى : جعلنا على أبصارهم غشاوة وغطاءً ، فهم مصدودون عن الحق لأشياء . أولاً : فى ذواتهم أغشينا أبصارهم فلا يروْنَ ولا يهتدون ؛ لأنهم بذواتهم لم يذكروا عهد الفطرة الأولى التى فطر اللهُ الناس عليها .

أما الخارج عنهم ، ففى المنهج الذى لم يلتفتوا إليه ، لا فيما أمامهم ، ولا فيما وراءهم ؛ لأن هناك سَدّاً يمنعهم ، فلو تذكَّروا ما ينتظرهم لارتدعوا عن غَيِّهم ، ولو تأملوا ما نزل بمَنْ سبقهم من المكذِّبين ، وما حاق بهم من عذاب الله لرجعوا .

لكن جعل الله من أمامهم سَدّاً ، فلا يعرفون ما ينتظرهم ، ومن خَلْفهم سَدّاً فلا يتدبرون ما حاق بأسلافهم ، ممَّنْ قال الله فيهم : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا [1] .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

فإنْ قُلْتَ : الحق سبحانه جعل سَدّاً يمنعهم من الجهة الأمامية ، وسَدّاً يمنعهم من الجهة الخلفية ، فماذا لو ساروا على جنب إلى اليمين ، أو إلى اليسار ؟ قالوا : لو ساروا وتوجهوا إلى اليسار مثلاً لَصَار اليسار بالنسبة لهم أمام ، واليمين صار خلفاً ، فهم إذن مُحَاصرون بالموانع ، بحيث لا أمل لهم فى الرجوع إلى منهج الحق ، وإلى الصواب .

ويصح أن يكون المعنى ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً (٩) ﴾ [يس] أى : مانعاً يمنعهم من التأمل والنظر فى الأدلة العقلية المنصوبة أمامهم ليؤمنوا ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً (٩) ﴾ [يس] يمنعهم ، فلم

(١) هذه أربعة أصناف من العذاب :
- ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً (٤٠) ﴾ [العنكبوت] : هم قوم عاد . والحاصب ريح شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل عليهم حصباء الأرض حصاها ورمالها .
- ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]: هم قوم ثمود ، جاءتهم صيحة أو صرخة أخمدت منهم الأصوات والحركات .
- ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت] : هو قارون ، خسف الله به وبداره الأرض .
- ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا (٤٠) ﴾ [العنكبوت] هو : فرعون ووزيره هامان وجنودهما أغرقوا عن آخرهم فى صبيحة واحدة .

ينتهوا إلى الفطرة الإيمانية المُودَعة فيهم .(١)

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

السوائية هنا بالنسبة لهم ، لا بالنسبة لرسول الله ﷺ ؛ لأن رسول الله عليه مجرد البلاغ ، ومادام بلَّغهم فقد انتهت مهمته ، فكأن الله يقول له : اطمئن ولا تحزن ، فإنذارك وعدمه عندهم سيَّان ، إنما بإنذراك أُقيمت عليهم الحجة ، لأنهم أقسموا فى موضع سابق : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [فاطر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره هذه الآية (٣/٥٦٤) عن محمد بن كعب القرظى « أن أبا جهل قال لصناديد قريش وهم جلوس : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكاً . فإذا متم بعثتم بعد موتكم وكان لكم جنان خير من جنان الأردن ، وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تعذبون بها وخرج عليهم رسول الله ﷺ عند ذلك وفى يده حفنة من تراب ، وقد أخذ الله على أعينهم دونه فجعل يذرُّها على رءوسهم ويقرأ (يس والقرآن الحكيم) حتى انتهى إلى قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [يس] وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته وباتوا رصداء على بابه حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار ، فقال : ما لكم ؟ قالوا : ننتظر محمداً . قال : « وقد خرج عليكم ، فما بقى منكم من رجل إلا وضع على رأسه تراباً ثم ذهب لحاجته ، فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب » وذكره أيضاً السيوطى فى الدر المنثور (٧/٤٣) وعزاه لابن إسحاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبى نعيم فى الدلائل .

يعنى : إنذارك يا محمد يجدى مع مَنْ يذكر الله ويخافه ، ويؤمن به ، ويؤمن بقدرته تعالى على البعث وعلى الحساب ، هذا الذى ينتفع بالإنذار ويستفيد منه على خلاف المكذِّب للأصل ، كيف يستفيد من الإنذار ؟ ومعنى ﴿ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ [يس] أى : القرآن .

والخشية : خوف ، لكن بمهابة ، فأنت تخاف الله وتهابه ، وكذلك ترجوه ، أما الخوف من غير الله فخوف بكُرْه ؛ لأنه خوف من جبروت ؛ لذلك جاءت بعد الخشية صفة الرحمة ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ ﴾ [يس] فأنت تخاف ممَّن اتصف بالعطف والحنان ، وهذا أَدْعى أنْ يُحبِّبك فيمَنْ تخاف منه ويعطفك إليه ، فتكون خشيتك له ممزوجة بالهيبة والوقار ، وبالرجاء فيه ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ ﴾ [يس] حتى لا تنفر من الذى تخافه .

وهذه الخشية تكون من المؤمن ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ [يس] يعنى : ساعةَ يكون غائباً عن الناس منفرداً ، فإنه يخشى الله ، ولا يخشى الناس ، ولا يحتاج إلى رقيب ؛ لأن رقابة البشر للبشر لا تُجدى ؛ لأنك ستجعل عليه رقيباً من جنسه ، وما جاز على المراقَب يجوز على المراقِب من تدليس وغيره ، حتى حين تجعل على المراقِب تفتيشاً مفاجئاً لا تأمن التدليس .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً برجل المرور ، فالواحد منا قبل أنْ يُسمح له بقيادة سيارة لا بُدَّ أنْ يمرَّ بشروط قاسية تضمن أولاً سلامة السيارة التى يقودها ، ثم تمكّنه هو من فن القيادة ، ولا بُدَّ أنْ يجتاز الاختبارات اللازمة لذلك ، ومع هذا كله منَّا مَنْ يلتزم ، ومنَّا مَنْ لا يلتزم بالقواعد المرورية ؛ لذلك نجعل رجل المرور ليراقب وينظم حركة المرور فى الشوارع ، وعليه مَنْ يراقبه .

لكن لما وجدوا أن رجل المرور يمكن أنْ يُدلس ، فـيأخذ الرخصة من مخالف ، ويتغافل عن آخر استـحدثوا آلات للمراقبة مثل الرادارات، لتكون أكثر دقة ، لكن هذه الآلات مَنْ يُشغِّلهـا ؟ بشر يجوز عليهم ما يجوز على غيرهم .

إذن : حين يكـون المراقب من جنس المـراقَب ، فعمليـة المراقـبة لا تفـيد ، ولو جـعلنا على كل منا رقـيـباً لاحـتـجْنا إلى جيـوش من الحراس .

إذن : ماذا نفعل لنحكم هذا العالم كله ؟

محمـد ﷺ جاء ولرسالته ميـزات الرسالة الكاملة ، فرسالتـه غير مـحدودة بزمـان ولا بمكان ، فالزمـان والمكان همـا اللذان يحصـران الأحداث ، فهما ظرفان للحدث ، فـإذا لم يكُنْ حدث موجوداً فلا زمانَ ولا مكانَ ؛ لذلك لا يصح أنْ يُقـال بالنسبة لله تعـالى : أين ولا متى ، لأن أيْن ومتى مخلوقتان لله .

وإذا كـان الزمان والمكان يشـتركـان فى الظرفـية للحـدث إلا أن المكان ظرف قـارٌّ يعنى : ثابت ، والزمان ظرف متـغيـر ، فهذا وقـته الصبح ، وهذا الظهر ونقول : هذا قبل كذا ، وهذا بعد كذا .

رسول الله جاء برسالة عـامة فى الزمان وفى المكان إلى أنْ تقوم السـاعة ، وجاء بـمنهج لصيـانة الإنسان فى العـالم كله مع اخـتلاف بيئاته وطبائعه ، وفى الأزمنة باخـتلاف عصورها ، فكيف تتحقق هذه الصيانة وهـذه المراقبة ؟ ما دام مـحمد ﷺ قد جـاء بمنهج ليحكم به العالم كله زمانـاً ومكاناً ، فلا يصح أنْ يجعل على كل فرد منه رقـيباً من جنسـه ، ولا حتى من المـلائكة ، إنمـا عليه أنْ يربى فى نفـوس الناس خشية الله ، وأنْ يزرع فى قلوبهم المهابة منه سبحانه بالغيب ،

وهذا هو الرقيب الحقيقى والرقيب الملازم الذى لا ينفكّ عنك ، ولا يفارقك لحظة .

لذلك ، المرأة التى راودها الرجل وأغراها بأنهما فى فلاة لا يراهما أحد فقال لها : ما يمنعك منى ، وما يرانا غير الكواكب ؟ فقالت له : يا أبله ، وأين مُكوكب الكواكب ؟ هذه هى خشية الرحمن بالغيب .

ورُوِى أن المعتضد[1] وهو أحد ملوك دولة بنى بُوَيْه أيام الخلافة العباسية ، وكان مشهوراً بالذكاء والعدل ، وحدث أن جاء رجل إلى سوق بغداد ليبيع عقْداً نفيساً ليحج بثمنه ، فلم يجد فى السوق مشترياً لنفاسة العقد ، ومرَّ الرجل بشيخ وقور عليه علامات الصلاح فقال : هذا رجل أمين أُودع عنده هذا العقد أمانة حتى أعود من الحج ، فلما عاد من الحج سأل الشيخ عن العقد الذى تركه عنده ، فأنكره الشيخ ، وخابت كل محاولاته لاستعادة العقد .

سمعه أحد المارة فقال : يا هذا إنه رجل مخادع كذاب ، اذهب إلى المعتضد ، وسوف يعيد لك العقد بذكائه وحيلته ، ذهب الرجل إلى المعتضد وقصَّ عليه القصة فقال له : اذهب فى الغد واجلس بجوار هذا الرجل ، وسوف أمرُّ عليك فى موكبى فلا تَقُمْ لى وإنْ كلَّمتُك فرُدّ وأنت جالس ، ودَعْنى أتصرف فى هذه المسألة .

وفى الغد مَرَّ المعتضد فى موكبه المهيب ، وحوله الحاشية

---

(١) ليس المعتضد ، وإنما هو عضد الدولة واسمه فنَّاخسرو ، أبو شجاع ، أحد المتغلبين على الملك فى عهد الدولة العباسية ، ولد ٣٢٤ هـ تولى ملك فارس ثم ملك الموصل وبلاد الجزيرة ، كان شيعياً ، وكان كثير العمران عظيم الهيبة ، توفى ببغداد عام ٣٧٢ هـ عن ٥٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٥/١٥٦].

و (الهيلمان) والصولجان[1] فنظر إلى صاحب العقد وقال : يا فلان منذ متى وأنت هنا ؟ وكيف لا تخبرنى بوجودك لأقابلك وأؤدى لك حقك .

سمع الشيخ هذا الكلام فظنَّ أن الرجل من معارف الملك ومن أتباعه ، فارتعد ونادى صاحب العقْد ، وقال له : أرجوك لا تذكرنى أمام الملك بحكاية العقْد هذه ، وقَام إلى العقْد فردّه إلى صاحبه ، ذهب الرجل بالعقد إلىَ المعتضد فتبسم ، وقاَل له : انتظرنى فى الغد أمام دكان هذا الشيخ .

وبالفعل جاء المعتضد ، لكنه هذه المرة كان بصحبته المشنقة ، فأمر بنَصْبها أمام دكان هذا المخادع ، وأمر به فشنقوه . ثم قال : هذا جزاء مَنْ كان إيمانه بين الناس مشهداً ، وليس إيمانه بالغيب - يعنى : بعيداً عن أعين الناس[2] .

لذلك جعل الله المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، وكانوا أول الناس سَعْياً للصلاة ، وكانوا أصحاب الصف الأول خلف رسول الله ، ومع ذلك كان هذا جزاءهم لماذا ؟ لأن المنافق متناقض مع نفسه ، فلسانه خلاف قلبه .

ومن معانى الغيب فى قوله تعالى :﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَـٰنَ بِالْغَيْبِ (١١) ﴾ [يس] أى : الغيب الذى أخبر الله به من أن هناك آخرة وبعثاً وحشراً وحساباً .

---

(١) الصولجان : العود المعوج فارسى معرَّب [لسان العرب - مادة صلج] وهو رمز السلطة والجاه .

(٢) ذكر هذه القصة الإمام ابن الجوزى فى كتابه الأذكياء - الباب الحادى عشر ، وقد حدث هذا فى بغداد ، وقد كان التاجر الذى أنكر الوديعة التى عنده عطاراً ، أما الآخر فقد كان من أهل خراسان ، وكان جزاء العطار أن العقد عُلِّق فى رقبته وصُلِب على باب الدكان .

وهذه الخشية لله تكون بالغيب يعنى : الإيمان بالغيب ، والله تعالى نؤمن به سبحانه وهو غيب ، والغيب كما قلنا : ما غاب عنك ولا يوجد فى الكون طريق يُوصِّلك إليه ولا مقدمات ، فنحن نعرف مثلاً فى حل تمارين الهندسة أو النظرية : الفرض والمعطيات والمطلوب ، فالمعطيات والمقدمات تُوصِّلك للغاية وللمطلوب .

لذلك تجد أن علم الغيب ينقسم إلى قسمين : غيب استأثر الله به ، لا يُظهر عليه أحداً إلا مَن ارتضى من رسول ، ولم يجعل لهذا النوع من الغيب مقدمات تُوصل إليه وتدلّ عليه ، وهناك غيب له مقدمات تدلُّك عليه ، فإن استخدمتَ هذه المقدمات توصَّلْتَ بها اليوم إلى ما كان غيباً بالأمس ، وينبغى عليك أنْ تستدلّ بالغيب الذى صار مشهداً لك على أنْ تصدق بالغيب الذى لم تدرك غيبه ، ولا سبيل لك إليه ، ينبغى أنْ يحفزك ما ترى على أنْ تؤمن بما لم تَرَهُ .

وقلنا : إن هذا النوع من الغيب وهو الغيب الذى له مقدمات تُوصِّل إليه ، له ميلاد يظهر فيه ، فإنْ صادف هذا الميلاد بحثاً من البشر ، وكان البحث سبباً فى ظهوره ، وإلا أظهره الله مصادفة ، كما جاءت أغلب الاكتشافات التى تخدم البشرية الآن مصادفة ؛ لأن ميلاد الغيب جاء وبحثُك عنه لم يجئ .

والمؤمن هو الذى يزداد إيمانه بالغيب حين يستدل بما ظهر له على ما لم يظهر ، ومن العلماء والموهوبين من الناس مَنْ يفسر لك الغيب الذى لم يأْتِ أوانه بشىء موجود بالفعل ، ومن ذلك ما رُوى أن الروم أرسلتْ إلى أمير المؤمنين أنْ يرسل إليهم عالماً يفقههم فى أمور الدين ، فأرسل إليهم الشّعْبى[1] فجعلوا يسألونه فيما يَخْفَى عليهم

(١) ذكر ابن حمدون فى « التذكرة الحمدونية » أن الرجل هو خالد بن يزيد القرشى ، وقد التقى بشمامسة ورهبان وسألوه هذه الأسئلة ، وذكر صلاح الدين الصفدى فى « الوافى بالوفيات » أن الرجل هو الخليل بن أحمد الفراهيدى والسائل راهب فى صومعة ، وكذلك القاضى التنوخى فى « نشوار المحاضرة » . والله أعلم .

من الدين ، وكان مما عرضوه عليه أن الإنسان حين يُنعَّم فى الجنة يأكل ولا يتغوَّط ، فكيف يكون ذلك ؟ فرد الشَّعْبى بما عنده من الإشراقات التنويرية التى يفتح الله بها على مَنْ يشاء . وقال لهم : أرأيتم الجنين فى بطن أمه ، إنه يتغذى وينمو دون أنْ يتغوط ، ولو تغوَّط فى مشيمته لاحترق ، كذلك الإنسان فى الجنة يأكل ولا يتغوَّط ؛ لأنه يتغذى بطهى الله له ، فالله يعطيه بقَدَر بحيث لا يبقى شىء يتغوّطه الإنسان ، أمّا نحن فنأكل بطهينا لأنفسنا ، ولا نأكل بقدْر الحاجة ، لذلك نتغوط .

قالوا له : زعمتم أنكم تأخذون من الجنة ما تشاءون دون أنْ ينقص منها شىء ، فكيف ذلك ؟ قال : لأن الشىء ينقص بالأخذ منه حين لا يكون له مدد من الغير ، فإنْ كان له مدد لا ينقص ، والمدد فى الجنة من الله ، فكيف يتأتى النقصان ؟

شىء آخر : لو جئتَ إلى المصباح فأخذتَ منه شعلة ، بل آلاف الشعلات ، أينقص من ضوء المصباح شىء ؟

وهكذا رَدّ الشعبى ، وأُعجب به القوم ، وكتبوا له كتاباً يُوصله إلى أمير المؤمنين ، وكأنهم حسدوا أمير المؤمنين أن تكون مثل هذه العقلية وهذه الموهبة فى خدمته ، وكان فى الكتاب : عجبتُ لقوم فيهم مثل الشعبى ، كيف يُولُّون غيره ؟

فلما ذهب الشعبى وسلَّمه الكتاب قرأه أمير المؤمنين ، وقال للشعبى : أتدرى ما فى الكتاب ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين . قال : اقرأ ، فقرأ الشعبىُّ العبارة : عجبتُ لقوم فيهم مثل الشعبى كيف يُولُّون غيره ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، لأنه لم يَركَ ، ولو رآك لغيَّر رأيه .

والمتأمل فى مسألة الإنذار يجد لرسول الله ﷺ إنذارين : عام للعالمين جميعاً ، وهو إنذار بلاغ من الله للجميع المؤمن والكافر ، وهو الذى قال الله فيه : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً .. (٢٤)﴾ [فاطر] فالذين يؤمنون بالله ينتفعون بالإنذار ، وينتفعون بالبشارة ، والذين لا يؤمنون لا ينتفعون من ذلك بشىء .

والإنذار الآخر إنذار خاص بمَنْ خَشى الرحمن بالغيب ، وهو إنذار القبول ، وينتفع به مَنْ خشى الرحمن بالغيب ، فالذين لا يخشوْن ربهم سبق أن أُنذروا ، لكن إنذار بلاغ ، فلم ينتفعوا به ؛ لذلك لم يشملهم الإنذار الخاص .

وقوله سبحانه : ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١)﴾ [يس] قلنا : إن البشارة : إخبار بالخير قبل أوانه ليحفزك إلى أسباب الخير ويُطمعك فيها ، وتلحظ هنا أن المغفرة سبقتْ الأجر ، لماذا ؟ قالوا : لأن الحق - سبحانه وتعالى - قبل أن يُعطيك النعمة يصرف عنك العذاب أولاً ؛ لأن التخلية كما قلنا تسبق التحلية ، ثم إن المغفرة دائماً هى جزاء الإيمان بالله ، أما الأجر فجزاء العمل بمنهج الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ (٤٨)﴾ [النساء] فمَنْ آمن بالله أَمِنَ العذاب وضمن المغفرة ، فإنْ أراد الأجر فعليه بالعمل الصالح .

ووصف الأجر نفسه بأنه كريم مع أن الكريم هو المعطى سبحانه ، فالمعنى أن كرم المعطى تعدَّى إلى العطية ، فصارت العطية كريمة ، وكأنها تتلهَّف على صاحبها ، كما يتلهَّف الرجل إلى العطاء ؛ لذلك قلنا : إن النعمة التى يُنعم الله بها على خَلْقه تعشق صاحبها ، وتسعى إليه وتكره مَنْ يحسده عليها ، أو يحقد عليه بسببها .

لذلك لا تذهب إلى هذا الحاسد الحاقد ، ولا يناله منها خير أبداً ،

وكأن المُنعم سبحانه يقول : ما دُمْتَ قد كرهتَ النعْمة عند غيرك ، فلن تنال منها شيئاً ؛ لأنك تُخطِّئ الله في عطائه ، وتعترض على قضائه ، فكيف تأتيك نعمته ؟ لكن إنْ أحببت النعمة عند غيرك تأتكَ وتطرق هي بابك .

وهذه المسألة لها شواهد كثيرة من حياتنا ، أذكر منها أن رجلاً من بلدنا ميت غمر جاءني يشكو قسوة عمه الغني عليه ، وأنه رغم غنَاه بخيل عليه ، ويستعمل الأغراب ، ويتركه هو بدون عمل ، وغير ذلك مما ذكره في شكواه ، وكان معي في هذه الجلسة أهلي ، فقالت له : يا ابني أنت دائماً تشتم عمك وتخوض في حقه ، قال : نعم لأنه لا يسأل عني .

فقلت له : أسألك سؤالاً وأستحلفك ألاَّ تكذب ، فلما رأى أنني سأحلفه على المصحف تراجع ، فقلت له : أتحب النعمة عند عمك ؟ قال : لا ، كيف أحبها ، وأنا لا أنال منها شيئاً ، قلتُ : لو أحببتَ النعمة عند عمك ، وتمنيتَ له الخير والمزيد لجاءتك النعمة تطرق بابك ، قال : إذن أرجوك يا مولانا تكلم عمي وتوصيه عليَّ .

ويبدو أن الرجل حاول فعلاً إصلاح نفسه ، فأصلح الله ما بينه وبين عمه ، فبعد صلاة الفجر جاءني يطرق الباب ، فلما دخل قال وهو يبكي : يا مولانا أحكي لك حكاية أغرب من الخيال . قلت : ما هي ؟ قال : قبل الفجر بساعة جاء مَنْ يطرق عليَّ الباب بشدة ، فقمت ففتحت الباب ، فإذا به عمي يعاتبني ويقول : كيف تتركني للأغراب ينهبون مالي وأنت (داير) على حَلِّ شعرك ، خذ المفاتيح ، ومن الصباح تفتح المحلات ، وتباشر بنفسك مصالحي .

فقلت له . نعم ، لأنك أحببتَ النعمة عند عمك وغيَّرتَ ما في